الفصل الخامس

دور أهل الشام في الفتوح

كان اهتمام العرب بتأمين فتوحاتهم هو الذي أدّى بهم إلى بسط رقعتها توخياً لحماية أفضل، فبعد أن تم فتح الشام كان لابد من فتح الجزيرة نظراً لارتباطها بالشام عن طريق نهر الفرات، وضرورة تأمين الشام من الشرق، ولأن القنوع بالشام كان معناه فقدها بعد قليل، وقد تمّ فتح الجزيرة في خلافة عمر بن الخطاب على يد عياض بن غنم الذي كان عمر بن الخطاب قد عينه والياً على حمص وقنسرين والجزيرة[1].

وكما اتصلت فتوح الجزيرة بفتوح الشام اتصلت فتوح أرمينية بفتوح الجزيرة، لكي يؤمن المسلمون ثغور الجزيرة في موقعها الحساس، وعندما جمع عثمان لمعاوية ولاية الشام والجزيرة[2]، غدت مسائل الحدود تعالج بنشاط أكبر، فأرسل معاوية بناء على أمر من عثمان، حبيب بن مسلمة الفهري في ستة آلاف ويقال في ثمانية آلاف من أهل الشام والجزيرة[3]، فاستولى على قليقلا عاصمة أرمينية البيزنطية (تيودوبوليس[4])، وجلا كثير من أهلها إلى بلاد الروم، فأقام بها حبيب فيمن معه أشهراً، فلما وجه بطريق بند أرمنياكس جيشاً كبيراً انضم إليه أهل اللان والخزر، كتب إلى عثمان يستمده، فكتب إلى معاوية يسأله أن يشخص إليه من أهل الشام والجزيرة قوماً ممن

---

(١) البلاذري، فتوح، ص ١٧٧.

(٢) المصدر السابق، فتوح، ص ١٨٣، ١٨٨، ١٨٩.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٠٠.

(٤) نبيه عاقل، خلافة بني أمية، ص ٨٢.

يرغب في الجهاد، فأرسل إليه معاوية ألفي رجل أسكنهم قليقلا وأقطعهم بها القطائع وجعلهم مرابطة بها[٥]، كما أرسل عثمان إلى سعيد بن العاص واليه على الكوفة يأمره بامداد حبيب بن مسلمة، فوجه سلمان بن ربيعة الباهلي[٦]، في ستة آلاف من أهل الكوفة، ولكن سلمان وصل وقد فرغ المسلمون من عدوهم، فطلب أهل الكوفة إليهم أن يشركوهم في الغنيمة فلم يفعلوا[٧]، وكتب إلى عثمان بذلك فكتب، «ان الغنيمة باردة لأهل الشام[٨]».

بعد أن استولى حبيب على قليقلا، جرت بينه وبين الروم البيزنطيين على أرض أرمينية معارك عديدة، انتهت بسيطرة العرب على أرمينية البيزنطية، ثم تابع زحفه على القسم الفارسي حتى بلغ مدينة دبيل[٩]، (دفين Dwin[١٠]). وأتم حبيب فتح أرمينية بوصوله إلى مدينة تفليس حيث عقد صلحاً مع أهلها مقابل اعترافهم بالسيادة الإسلامية، وقد هم عثمان أن يولي حبيب بن مسلمة جميع أرمينية، ثم رأى أن يجعله غازياً لثغور الشام والجزيرة فعاد حبيب ونزل حمص[١١].

وحين قامت الفتنة بين علي ومعاوية اضطر معاوية لسحب قواته المرابطة في أرمينية ليستخدمها في صراعه ضد خصمه، وأدّى انسحاب الجيش الإسلامي من أرمينية إلى حدوث فراغ استغله البيزنطيون لاسترجاع سيادتهم على هذا الموقع الاستراتيجي الهام، ونجح البيزنطيون في تحقيق هدفهم وسقطت أرمينية مرة أخرى في يد الامبراطورية البيزنطية لتعاود سياستها الجائرة في حكم الأرمن بسبب ما كان بين

---

(٥) البلاذري، فتوح، ص ٢٠٠.

(٦) سلمان بن ربيعة الباهلي، صحابي من القادة، شهد فتوح الشام وسكن العراق، واستقضاه عمر على الكوفة، قال ابن قتيبة: هو أول قاض قضى لعمر بن الخطاب بالعراق، وفي المعارف لابن قتيبة أنه قتل ببلنجر من أرض الترك أو من أرمينية، (المعارف ص ١٩١، تهذيب، ج ٤ ص ١٣٦).

(٧) البلاذري، فتوح، ص ٢٠١.

(٨) المصدر السابق، ص ٢٠١، وقد نقل البلاذري هذه الرواية عن مشايخ أهل قليقلا، كما كتب بها العطاف ابن سفيان أبو الأصبغ قاضيها.

(٩) المصدر السابق، ص ٢٠٣.

(١٠) نبيه عاقل، خلافة بني أمية، ص ٨٢. E.I.Art. Arminiya

(١١) البلاذري، فتوح، ص ٢٠٧.

الطرفين من عداء مذهبي، على أنه ما كادت الخلافة تؤول إلى معاوية حتى عاودته فكرة استعادة هذا الإقليم الهام وإعادته إلى التبعية العربية، وظلت كذلك طوال فترة الحكم الأموي[١٢]. وقد ولي أرمينية من قبل معاوية عبد الله بن حاتم بن النعمان الباهلي، فلما توفي، وليها أخوه عبد العزيز بن حاتم فبنى مدينة دبيل وحصنّها، وكبّر مسجدها وبنى مدينة النشوى ورمّ برذعة، ويقال أنه جدّد بناءها[١٣]، ويقال أن الذي جدد بناء برذعة محمد بن مروان في أيام عبد الملك ابن مروان، وقد انتقضت أرمينية وخالف أحرارها وأتباعهم أثناء فتنة ابن الزبير، فلما ولي محمد بن مروان أرمينية من قبل أخيه عبد الملك حاربهم وسيطر على البلاد[١٤].

وولّى الخليفة يزيد بن عبد الملك الجرّاح بن عبد الله الحكمي من مَذْحِج، الدمشقي الأصل والمولد، إمارة أرمينية وأذربيجان، فنزل برذعة، فلما رأى اختلاف مكاييلها وموازينها، أقامها على العدل والوفاء، واتخذ مكيالا يدعى الجراحي، بقي أهلها يستعملونه حتى عهد البلاذري[١٥]. وغزا الجراح الخزر، وافتتح حصن بَلَنْجَر وغيرها من الحصون، فلما مات يزيد أقرّه هشام بن عبد الملك ثم عزله سنة ١٠٨ هـ، وأعاده سنة ١١١ هـ، وتابع الجرّاح بن عبد الله حروبه مع الخزر، فلما هزمهم اجتمع الخزر والترك من ناحية اللاّن فواجههم الجرّاح فيمن معه من أهل الشام فاقتتلوا قتالاً شديداً، وتكاثرت الخزر والترك على المسلمين، فاستشهد الجرّاح ومن معه بمرج أَرْدَبيل[١٦]. فطمع الخزر بالعرب وأوغلوا في البلاد، فولّى هشام مسلمة بن عبد الملك أرمينية ووجه على مقدمته سعيد بن عمرو بن أسود الحرشي مع العديد من أشراف الشام[١٧].

ويذكر الطبري أن هشاماً دعا سعيداً الحرشي وسأله رأيه فاقترح عليه إرساله

---

(١٢) ابراهيم العدوي، الأمويون والبيزنطيون، الطبعة الثانية، الدار القومية للطباعة والنشر، ص ١٢٧.
(١٣) البلاذري، فتوح، ص ٢٠٧.
(١٤) المصدر السابق، ص ٢٠٧.
(١٥) المصدر السابق، ص ٢٠٨.
(١٦) ابن الأثير، ج ٥، ص ١٥٩.
(١٧) البلاذري، فتوح، ص ٢٠٨.

على أربعين دابة من دواب البريد، ثم يبعث إليه كل يوم أربعين رجلاً ثم يكتب إلى أمراء الأجناد بموافاته، ففعل ذلك هشام وسار الحرشي، فكان لا يمر بمدينة إلا ويستنهض أهلها فيجيبه من يريد الجهاد، واستطاع الحرشي أن يصل إلى خلاط وهي ممتنعة عليه فحصرها وفتحها، ثم سار عنها وفتح الحصون والقلاع شيئاً بعد شيء إلى أن وصل بَرْذَعة، فنزلها كما استطاع أن يجبر الخزر على فك حصار مدينة ورتان، وهزم الخزر هزيمة عند نهر البَيْلَقان، وجمع الحرشي الغنائم وعاد إلى باجروان، فقسمها وأرسل الخمس إلى هشام بن عبد الملك وعرّفه ما فتح الله على المسلمين فكتب إليه هشام يشكره، ثم لم يلبث أن أمره بالمصير إليه، واستعمل أخاه مسلمة بن عبد الملك[١٨]، الذي استطاع بعد جهد بالغ أن يفتح مدينة الباب والأبواب وكان في قلعتها ألف أهل بيت من الخزر[١٩]، فأسكن مسلمة بن عبد الملك مدينة الباب والأبواب أربعة وعشرين ألفاً من أهل الشام على العطاء وبنى هريا للطعام وللشعير وخزانة للسلاح ورمّ المدينة، وكان مروان بن محمد مع مسلمة وواقع معه الخزر، فأبلى وقاتل قتالاً شديداً، لذلك ولاه هشام ذلك الثغر، وكان له بلاء في قتال الخزر حتى أن عظيمهم عندما رأى كثرة ما وطىء به مروان بلاده من الرجال وما هم عليه في عدتهم وقوتهم قبل الإسلام وأظهره عندما خيّره مروان بين الحرب والإسلام، فأقرّه في مملكته وسار بخلق من الخزر إلى اللكز وأرض السرير، ويبدو أن مدينة الباب والأبواب أصبحت المركز الذي تنطلق منه جيوش المسلمين، ونلاحظ أن المعاهدات التي عقدها مروان مع ملوك تلك المناطق كانت تنص كلها على تقديم أعداد من الغلمان والجواري وعلى كميات ضخمة من الأرزاق تصب كلها في أهراء الباب[٢٠].

دور أهل الشام في فتح جزر البحر المتوسط

بذل معاوية بن أبي سفيان في فتح المنطقة الساحلية من إقليم الشام جهوداً

---

(١٨) الطبري، ج ٧، ص ٧٠، ابن الأثير، ج ٥، ص ١٥٩.

(١٩) البلاذري، فتوح، ص ٢٠٩.

(٢٠) المصدر السابق، ٢١٠، ٢١٢.

ذات بلاء حسن وأثر جميل، كما شهد له بذلك قادة العرب في الشام، وقد خرج من تلك العمليات الحربية بنتيجة هامة، هي أن بقاء العرب واحتفاظهم بممتلكاتهم في الشام ومصر رهن باهتمام العرب بالأسطول ورهن بالاستيلاء على جزر البحر الأبيض المتوسط التابعة للروم والتي كانت قواعد بحريّة خرج منها الامداد إلى مدن الشام أثناء حصار العرب لها.

بدأ معاوية يعمل على تحقيق أهدافه البحرية منذ خلافة عمر بن الخطاب، وتجلّت الخطوط الرئيسية للبرنامج البحري الذي رسمه معاوية حين أرسل إلى الخليفة عمر ابن الخطاب يستأذنه في غزو جزيرة قبرص مبينا له شدة خطورة هذا المعقل التابع للروم على سلامة المدن الشامية، إذ جاء في خطابه: «يا أمير المؤمنين ان بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص[٢١]»، ثم ختم خطابه بطلب السماح له بغزو تلك الجزيرة، وكان هذا الموضوع الذي أثاره معاوية موضوعاً جديداً لا بد من عرضه على كبار رجالات العرب، ووقف عمر إلى جانب أولئك الذين كان من رأيهم تجنب المخاطرات البحرية، إذ كان رائد الخليفة في اتخاذ هذا الموقف هو الحرص على سلامة المسلمين حيث قال لمعاوية: «وتالله لمسلم أحب الي مما حوت الروم، فاياك أن تعرض لي، وقد تقدمت إليك، وقد علمت مالقي العلاء مني ولم أتقدّم إليه في مثل ذلك[٢٢]». وفي رواية أخرى أنه كتب إلى معاوية: «لا والذي بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً[٢٣]». ولكن معاوية لم يكن بأقل من الخليفة حرصاً على سلامة المسلمين، وإنما كان أشد الولاة إحساساً بالخطر الذي يلوح في الأفق مهدداً ولاية الشام وكذلك مصر بسبب وجود أسطول الروم قريباً من شواطئهما وافتقارهما إلى وسائل الدفاع، وآثر معاوية أن ينفذ سياسته البحرية تدريجياً إزاء موقف المعارضة والحياد اللذين ظهرا بصدد رغبته في الهجوم على جزيرة قبرص، فكتب معاوية

---

(٢١) الطبري، ج ٤، ص ٢٥٩، رواية السرى عن شعيب عن جنادة بن أمية الأزدي، ص ٢٥٨، رواية السرى عن رجاء بن حيوة.

(٢٢) المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٥٩.

(٢٣) المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٥٩.

مرة أخرى إلى الخليفة عمر بن الخطاب يعرض عليه سوء حال سواحل الشام وماهي عليه من خراب وافتقارها إلى وسائل الدفاع القوية، فكان جواب الخليفة أن أمره بمرمّة حصونها، وترتيب المقاتلة فيها وإقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواقد لها[٢٤].

اكتفى معاوية بسياسة تقوية السواحل حتى ولي الخلافة عثمان بن عفّان، إذ خطا منذئذ خطوة ثانية في متابعة سياسته البحرية بتشجيع الناس على النزوح إلى المناطق الساحلية، وساعد معاوية على تحقيق خطته أن الخليفة أمر بمنح كل راغب في الاقامة في المدن الساحلية إقطاعات من الأرض يستغلها ويتمتع بخيراتها، ويعطيهم ما جلا عنه أهله من المنازل، وأن يبني المساجد ويكبر ما ابتني منها، فكان هذا سببا إلى انتقال الناس إلى السواحل، ثم لم يلبث أن ظفر من الخليفة عثمان بن عفّان بتصريح يبيح له غزو قبرص شريطة أن لا يأخذ معه في غزوته هذه إلا من اختار الغزو طائعاً[٢٥]، فكتب معاوية إلى أهل السواحل فأمرهم باصلاح المراكب وتقريبها إلى ساحل حصن عكا، ليكون ركوب المسلمين من عكا إلى قبرص، فأصلحت المراكب وجمعت، ووضع معاوية الأرزاق للناس الذين أرادوا الاشتراك في هذه الحملة وأمرهم بالمسير إلى عكا[٢٦]، وحرص معاوية على أن يصحبه عدد من كبار الشخصيات الإسلامية، ليكسب أولى حملات الأسطول العربي مظهر الجهاد[٢٧]. كما اتسمت هذه الحملة بخروج النساء معها، فاصطحب معه زوجته فاخته بنت قُرَظَة، كما أخذ عبادة بن الصامت امرأته أم حرام بنت مِلحان الأنصارية[٢٨]، فلما وصل المسلمون قبرص بعث إليهم حاكمها يطلب الصلح وقد أذعن أهلها، فصالحهم على سبعة آلاف

---

(٢٤) البلاذري، فتوح، ص ١٣٤، ١٣٥.

(٢٥) الطبري، ج ٤، ص ٢٦٠.

(٢٦) ابن الأعثم، فتوح، ج ٢، ص ١١٨.

(٢٧) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٢٢، ١٢٣، البلاذري، فتوح، ص ١٥٩، غزا مع معاوية أبو أيوب بن زيد بن كليب الأنصاري، وأبو الدرداء، وأبو ذر الغفاري، وعبادة بن الصامت، وفضالة بن عبيد الأنصاري، وواثلة بن الأسقع الكناني، وعبد الله بن بشر المازني، وشداد بن أوس بن ثابت والمقداد بن الأسود وغيرهم.

(٢٨) البلاذري، فتوح، ص ١٥٨.

ومائتي دينار، وفي رواية أخرى سبعة آلاف دينار[٢٩]، يؤدونها في كل عام ويؤدون إلى الروم مثلها، وليس للمسلمين أن يحولوا بينهم وبين ذلك، على ألا يغزوهم ولا يقاتلون من ورائهم ممن أرادهم من خلفهم، وعليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم، وعلى أن يبطرق امام المسلمين عليهم منهم[٣٠]، ويضيف الواقدي أنه في العهد الذي بين معاوية وأهل قبرص ألا يتزوج أهل قبرص من الروم إلا بإذن العرب[٣١]، كما يشير الواقدي إلى أن فتح قبرص لم يشترك فيه أهل الشام فقط سنة ٢٨ هـ وإنما غزاها أهل مصر وعليهم عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح حتى لقوا معاوية، وكان معاوية هو القائد الأعلى[٣٢].

وعندما أخلّ أهل قبرص سنة ٣٢ هـ/٦٥٣م بشروط الصلح وأمدوا الروم بسفن ساعدتهم على مهاجمة الشواطيء العربية بالشام، عمد معاوية إلى غزوهم سنة ٣٣ هـ في خمسمائة مركب، ففتح قبرص عنوة ثم أقرّهم على صلحهم وبعث إليها باثني عشر ألفاً كلهم أهل ديوان، فبنوا بها المساجد، ونقل إليهم جماعة من بعلبك وبنى بها مدينة[٣٤]، أي أن معاوية جعل من قبرص قاعدة للأسطول العربي في البحر الأبيض المتوسط، ولا تشير الروايات إلى الأسباب التي دفعت يزيد بن معاوية إلى اقفال ذلك البعث، بل ان رواية محمد بن مصطفى الحمصي تبين أن يزيد بن معاوية قد رشا مالاً عظيماً ذا قدر حتى أقفل جند قبرص، وأن أهل قبرص هدموا مدينتهم ومساجدهم[٣٥]، إلا أن سيطرة المسلمين على قبرص استمرّت وظلّ أهل قبرص على صلح معاوية حتى ولي عبد الملك بن مروان فزاد عليهم ألف دينار[٣٦]، وعندما عقد

---

(٢٩) المصدر السابق، ص ١٥٩، الطبري، ج ٤، ص ٢٦٢.
(٣٠) الطبري، ج ٤، ص ٢٦٢.
(٣١) المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٦٢.
(٣٢) المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٦٢.
(٣٣) البلاذري، فتوح، ص ١٥٨.
(٣٤) المصدر السابق، ص ١٥٨.
(٣٥) المصدر السابق، ص ١٥٨.
(٣٦) المصدر السابق، ص ١٥٩.

جستنيان الثاني معاهدة مع عبد الملك بن مروان ٦٩ ، ٧٠ هـ/٦٨٨ ، ٦٨٩ م أثناء ثورة الجَراجِمة وانشغال عبد الملك بثورة عبد الله بن الزبير ، نصت هذه المعاهدة على أن يدفع عبد الملك ألف دينار وحصاناً وعبداً عن كل أسبوع في السنة وعلى اقتسام مايجبى من أرمينية وقبرص ، كما تعهد جستنيان بنقل المَرَدَة من لبنان فنقل اثني عشر ألفاً منهم ، وأدرك جستنيان ولكن بعد فوات الأوان أنه أخطأ بعمله هذا فعمد إلى نقل سكان قبرص رغبة منه في أن يحرم الخليفة من أولئك الذين يدفعون له الجزية ، وكان معظم ضحايا هذه الهجرة الاجبارية من النصارى الإغريق ، كما أخذ العرب المقيمين فيها كأسرى ، وغرق قسم كبير منهم بسبب عاصفة قوية اعترضتهم قبل وصولهم إلى منطقة الهيليسبونت ، وعندما أصبح حاكم بند الكبيرهايوت Cybyrrhaeotes امبراطوراً باسم تيبيريوس الثالث Tiberius Apsimarus ، (٦٩٨ ــ ٧٠٥م/٧٩ ــ ٨٦ هـ) عمد إلى إرسال ثلاثة من أشراف قبرص يرافقهم موظف امبراطوري كبير طالبين إعادة القبارصة الموجودين في رومانيا Romania وسيزيكوس ، وفي البنديين الكبيرهايوت وتراقيا Thracia لإعادة تأهيل قبرص[٣٧] . وفي خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك أجلى منهم خلقاً إلى الشام لأمر اتهمهم به ، فأنكر الناس ذلك عليه فردّهم يزيد بن الوليد إلى بلدهم[٣٨] .

لم تكن قبرص الجزيرة الوحيدة التي غزاها معاوية ، إذ عقد العزم كذلك على التخلص من مخاوفه من جزيرة أرواد Aradus القريبة من الساحل الشامي بين مدينتي جبلة وطرابلس ، فأعد الأسطول لمهاجمتها بقيادة جنادة بن أمية وضم إليه أربعة آلاف رجل في عشرين مركباً ، ويذكر ابن الأعثم أن غزو جزيرة أرواد كان في السنة التي قتل فيها عثمان أي سنة ٣٦ هـ[٣٩] . بينما لا يذكر البلاذري سوى فتحها سنة ٥٤ هـ وعلى يد جنادة ابن أمية كذلك وان معاوية أسكنها المسلمين ، ولكنه يقول أن أرواد جزيرة

---

(٣٧) Sir George Hill. The History of Cyprus. Vol. I The Cambridge University Press. 1940. PP. 288 - 289.

(٣٨) البلاذري ، فتوح ، ص ١٥٩ .

(٣٩) ابن الأعثم ، فتوح ، ج ٢ ، ص ١٤٥ .

بالقرب من القسطنطينية[٤٠]، مما يجعلنا نتساءل ان كان هناك خطأ في تسمية تلك الجزيرة التي تم فتحها سنة ٥٤ هـ.

وفي سنة ٥٣ هـ فتح جُنادة بن أمية الأزدي رودس فأنزلها كذلك قوماً من المسلمين، وكان معاوية يعاقب بين الناس فيها، وكان مُجاهد بن جَبْر مقيما بها يُقرِىء الناس القرآن[٤١]، وغزا جنادة أيضاً جزيرة كريت، ويروى ابن الأعثم أن معاوية غزا رودس في خلافة عثمان[٤٢]، وأن نقطة الانطلاق كانت من صيدا وليس من عكا كما كان في فتح قبرص، ويضيف أن معاوية بنى فيها مسجداً وشحنها بالمسلمين[٤٣] وقوّاهم بالأموال والسلاح وأمرهم بالزراعة.

لم يكتف معاوية بغزو هذه الجزر القريبة من الساحل الشامي، إذ فكر بغزو جزيرة صقلية[٤٤]، وهو بعمله هذا إنما يدل على بعد نظره في الشؤون السياسية والعسكرية، إذ يبدو لأول وهلة أن هذه الجزيرة بعيدة كل البعد عن أن تكون موضع خطر مباشر على إقليم مصر والشام، ولكن مجريات الأحداث دلّت على أن صقلية غدت قاعدة لأساطيل الروم[٤٥] التي انسحبت من قواعدها بالشام ومركزا تهجم منه على العرب بحيث تشل التعاون البحري بين أساطيلهم في مصر والشام، وكانت صقلية بحكم موقعها الجغرافي تتحكم في المداخل الرئيسية الكبرى للبحر الأبيض المتوسط، فهي تقسم البحر المتوسط عامة إلى قسمين رئيسيين، وتشرف على الاتصال بينهما عن طريق مضيق مسينا، ومضيق صقلية الواقع بين طرفي جزيرة صقلية الجنوبي وشمالي افريقية[٤٦]، وعندما عزم معاوية على غزوها كتب إلى عثمان بذلك فأذن له واشترك أهل

---

(٤٠) البلاذري، فتوح، ص ٢٣٧، الطبري، ج ٥، ص ٢٩٢، ابن الأثير، ج ٣، ص ٤٩٣.

(٤١) البلاذري، فتوح، ص ٢٣٧.

(٤٢) ابن الأعثم، فتوح، ج ٢، ص ١٢٣.

(٤٣) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٢٧.

(٤٤) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٤٤.

(٤٥) حمد بدر، تاريخ المغرب والأندلس، ص ٥٢.

(٤٦) Semple, E. The Geography of The Mediterranean Region P. 72

الشام في هذه الغزوة البحرية التي ضمت ثلاثمائة مركب[٤٧]، وأغار المسلمون على أطراف صقلية، ثم أخرجوا مجانيق كانت معهم فنصبوها على حصونهم ورموهم رمياً متداركاً[٤٨]، كما كانوا يغيرون على قراهم وحصونهم، ثم يرجعون إلى مراكبهم، ولذلك اقترح بعضهم على ملك صقلية أن يستنجد بملك الروم، فلما بلغ ملك الروم عجزهم عن صد العرب جهّز ستمائة مركب فيها المقاتلة والسلاح، فقرر العرب عندما بلغهم ذلك الانسحاب فعادوا أدراجهم إلى ساحل الشام، وأرسل معاوية الخمس إلى المدينة وقسّم ما بقي بعد الخمس في المسلمين[٤٩]، ولم يتابع معاوية أو خلفاء بني أمية جهودهم في سبيل الاستيلاء على صقلية، وأصبحت الغزوات على صقلية توجه من قبل ولاة افريقية لاسيما بعد أن تم فتح المغرب سنة ٩٠ هـ.

ان سيطرة المسلمين على قبرص وأرواد ورودس وغاراتهم على كريت واحتلالهم فيما بعد جزيرة كوس[٥٠] هي التي هيأت وساعدت على غزو القسطنطينية براً وبحراً في خلافة معاوية إذ اتخذ العرب من جزيرة سيزيكوس Cyzicus قاعدة لإدارة حملاتهم ضد العاصمة[٥١]. فقد كانت الأساطيل الإسلامية تنقل الجنود من هذه الجزيرة إلى البر لمحاصرة أسوار القسطنطينية وتقف سفن الأسطول الإسلامي الأخرى مطوقة هذه المدينة من جهة البحر، وصمدت المدينة لهذا الحصار الذي دام أربع سنوات (٥٥ــ٥٩ هـ/٦٧٤ــ٦٧٨ م) وانسحب العرب من وراء أسوار هذه المدينة متخلين مؤقتاً عن مشروعهم في فتحها ليعاودوا المحاولة في عهد الوليد ابن عبد الملك وفي حملة القسطنطينية الأخيرة في خلافة سليمان بن عبد الملك.

دور أهل الشام في فتوح افريقية

لعبت الجيوش الشامية دوراً كبيراً في فتوح افريقية، ففي سنة ٥٠ هـ أعان

---

(٤٧) ابن الأعثم، فتوح، ج ٢، ص ١٣٨، ١٣٩.

(٤٨) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٤٣.

(٤٩) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٤٥.

(٥٠) نبيه عاقل، خلافة بني أمية، ص ٨٧، الامبراطورية البيزنطية، ص ١٠٥.

(٥١) المصدر السابق، ص ٨٧.

معاوية ابن ابي سفيان معاوية بن حديج بجيوش الشام وكان عبد الملك في ذلك الجيش، وخرجت جيوش الشام ومصر إلى افريقية واحتفروا الآبار التي تسمى اليوم آبار حديج بباب تونس[٥٢]، كما اشتركت الجيوش الشامية مع المصرية عندما خرج أبو المهاجر دينار من مصر سنة ٥٥ هـ إلى افريقية فوصل إلى قرطاجنّة.

وإذا تركنا جانباً انجازات عقبة بن نافع الذي بنى القيروان واجتاز المغرب الأوسط حتى طنجة في المغرب الأقصى، فان استشهاده في سنة ٦٥ هـ في مدينة تهوده حيث فاجأه كسيلة زعيم أُوربة (وكان عقبة قد أساء معاملته) مع حلفائه الروم، كان نكسة لم تقتصر على مقتله ومقتل من معه بل تعدّى إلى ماكسبه المسلمون من افريقية، إذ اتجه كسيلة وحلفاؤه نحو القيروان، واضطر زهير بن قيس البَلَوى إلى الانسحاب مع الكثيرين، ولم يبق في القيروان «إلاّ أصحاب العيال وكل مثقل من التجار وأهل الذمة[٥٣]»، فطلب هؤلاء الأمان من كسيلة فنالوه، ودخل مدينتهم ليبقى فيها أميراً قرابة أربع سنوات، واستفاد كسيلة من فترة الاضطراب التي تلت وفاة يزيد، وانتقال الخلافة من الأسرة السفيانية إلى المروانية، ولكن ما أن استقر الأمر نسبياً لعبد الملك بن مروان حتى أمر زهير ابن قيس البلوى أن يسير ضد كسيلة الذي قتل في معركة جرت سنة ٦٩ هـ[٥٤]، واستغل البيزنطيون غياب زهير ليغيروا على مقره في برقة ويهددوه من الخلف، فعاد بسرعة ولكن الروم تصدوا له في منطقة تقترب فيها الجبال من البحر ولا يسمح بمرور الجيش كله، مما أدّى لاستشهاده مع عدد كبير من جنوده[٥٥]، ولم يستطع عبد الملك الخليفة الأموي أن يرد على هذه الضربة بسرعة لانشغاله بأمر منافسه على الخلافة عبد الله بن الزبير، فما أن أتمّ القضاء على عبد الله بن الزبير حتى عمد إلى إرسال حسّان بن النعمان الغسّاني.

ويعود فضل توطيد الفتح في الواقع في افريقية ثم اتمامه إلى واليين شاميين، هما

---

(٥٢) المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية، الطبعة الأولى، ١٩٥١م، ص ١٩.

(٥٣) أحمد بدر، تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٥.

(٥٤) ابن عذارى، ج ١، ص ٢٠.

(٥٥) المصدر السابق، ج ١، ص ٢١.

حسّان بن النعمان الغسّاني وموسى بن نصير، وقد دخلها حسّان في ٤٠ ألفاً[٥٦]، أقام في مصر أولاً ثم أمره عبد الملك بالانطلاق إلى افريقية، فقدمها كما يقول ابن عذارى في عسكر عظيم، فلم يدخل المسلمون قط افريقية بمثل ما دخلها حسّان بن النعمان[٥٧]، وركّز حسّان هجومه أول الأمر على الروم وقاعدتهم البحرية والا دارية قرطاجنة واحتلها ولكنه فشل أمام الخصوم الآخرين من بربر الأوراس بزعامة الكاهنة التي ألحقت بحسّان وجيشه في بادىء الأمر هزيمة كبرى اضطر معها إلى التراجع إلى ما وراء حدود ولاية افريقية، حيث أقام متربصاً في برقة مدة خمس سنوات، ويبدو في كل عمل حسان بن النعمان ما يوحي وكأنّ الفاتحين يسيرون وفق خط يستفيدون فيه من تجاربهم الماضية، فتلك الاندفاعات التي كان ينتصر فيها المغاربة كانت أشبه بموجات أو عاصفة عاتية، لا تلبث أن تهدأ بعد أمد قصير لأنها مبنية على تحالفات في وجه خطر مهدد، فما أن يلوح زواله حتى ينفرط عقدها وتعود الأطراف المكونة لها إلى التصادم، وهذا يتيح للفاتحين العودة مستفيدين من ضعف خصومهم، وقد حصل هذا مع الكاهنة إذ لجأت إلى تخريب القرى والعمران حتى تزيل مطامع العرب في افريقية حسب رأيها، وهذا ما أوقع بينها وبين المستقرين من أفارقة وروم، وهذا ماساعد على انتصار حسان سنة ٧٩ هـ على الكاهنة التي جابهته في موقعتين قتلت في الثانية أثر هزيمة جيشها ومطاردتها[٥٨].

عاد حسّان بعد نصره إلى القيروان ليقوم بتوطيد الفتح وتوطيد سلطان المسلمين نهائياً في افريقية، فأدخل التحسينات على قاعدتهم، وأرسى أسس التنظيم للإدارة المالية والجيش الذي أدخل فيه البربر[٥٩]، وقام حسّان بفتح قرطاجنة للمرة الثانية وهدّمها، ولكي يضمن عدم عودتهم إلى موقعها بنى مدينة جديدة بجوارها لتكون قاعدة للعرب الفاتحين، وهي مدينة تونس[٦٠]، وهكذا كان لحسان الفضل في القضاء على النفوذ

---

(٥٦) ابن عذارى، ج ١، ص ٢٢.
(٥٧) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٣.
(٥٨) أحمد بدر، تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٧.
(٥٩) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ٢٠١، ابن عذارى، ج ١، ص ٢٩.
(٦٠) سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ص ٢٢.

البيزنطي في ولاية افريقية وفي القضاء على الكاهنة التي كان الروم يخشونها والبربر مطيعين لها[٦١]، كما أن إنشاء ميناء تونس الذي ينعم ببحيرة واسعة محمية من الأمواج وبعيدة عن قوات البيزنطيين البحرية أدّى إلى اضمحلال شأن قرطاجنة وانصراف الناس والسكان عنها ولم تعد مدينة يرغب البيزنطيون باستردادها[٦٢].

واستطاع موسى بن نصير اتمام فتح شمالي افريقية بين سنتي ٨٧ــ ٩٠ هـ وهو بذلك قد اعتمد ولا شك على القوات الشامية التي كانت قد دخلت افريقية مع حسّان بالإضافة إلى القوات العربية الموجودة في المنطقة والتي انضم إليها البربر الذين دخلوا في الإسلام، وكانت المراحل الأساسية لخط سيره هي عبوره المغرب الأوسط من الداخل ثم تجاوزه له والوصول إلى شمال المغرب الأقصى حيث احتل طنجة، وانحداره أخيراً نحو الجنوب حتى سجلماسه ودرعة، وبذلك أتم موسى فتح الشمال الافريقي كله باستثناء سبتة المفتوحة على البحر من جهاتها الثلاث، بينما يفصل جانبها البري الوحيد عن بر المغرب جبال ومرتفعات[٦٣].

يتوضح لنا مما تقدّم أنه كان للشاميين دور كبير في فتوح أرمينية وفي مناطق اللان والخزر، وفتوح بعض الجزر في القسم الشرقي من البحر المتوسط وفتوح شمالي افريقية، كما أنهم ساهموا ببعض الفتوحات في المشرق، ذلك أن الفتوحات في تلك الجبهة يعود الفضل فيها إلى مقاتلة العراق، ولم يشترك أهل الشام في فتوحات هذه المنطقة اللهم إلاّ في فتوح السند مع محمد بن القاسم الثقفي حيث ضم إليه الحجاج ستة آلاف من جند أهل الشام وخلقاً من غيرهم[٦٤]. كما اشترك أهل الشام مع يزيد ابن المهلّب في فتح منطقة جرجان ودِهِستان، بالإضافة إلى أهل الكوفة والبصرة والجزيرة ووجوه أهل خراسان والري[٦٥]. ويقال أن يزيد بن المهلّب كان في عشرين

---

(٦١) المالكي، رياض النفوس، ص ٣١، ٣٢، ابن عبد الحكم، فتوح، ص ١٧٣، ابن عذارى، ج ١، ص ٢٣.

(٦٢) ابراهيم العدوي، الأمويون والبيزنطيون، ص ٢٥٩.

(٦٣) ابن عذارى، ج ١، ص ٣٣، ٣٧.

(٦٤) البلاذري، فتوح، ص ٤٢٤.

(٦٥) الطبري، ج ٦، ص ٥٣٢.

ومائة ألف معه من أهل الشام ٦٠ ألفاً[٦٦]، وربما بقي قسم من المقاتلة في هذه المنطقة، إذ نجد إشارات لوجود جند من أهل الشام في بلخ[٦٧] وفي خراسان[٦٨]، وكان عددهم يقارب ألفين وخمسمائة في بلخ، كما أنه عندما نزل يحيى بن زيد بن علي بأرض الجَوْزَجان بعد أن انتصر على عمرو بن زرارة عامل نصر بن سيار على أبرشهر، سرّح إليه نصر بن سيار والي خراسان سلم بن أحوز في ثمانية آلاف فارس من أهل الشام وغيرهم[٦٩].

(٦٦) المصدر السابق، ج ٦، ص ٥٣٩، البلاذري، فتوح، ص ٣٣١.
(٦٧) الطبري، ج ٧، ص ١١٠.
(٦٨) المصدر السابق، ج ٧، ص ١٦٥.
(٦٩) الأصبهاني، مقاتل الطالبيين، ص ١٥٧.